الفصل الثالث

المعتكف الداخلي

«مثل نقرات كمان عتيق
تُكلِّمُني أصوات من داخل
عقلي، تلك الحجرة المغلقة».

سيغفريد ساسون[1]

يقال في الأساطير اليونانية إن الإله موموس عبَّر عن عدم اقتناعه بالإنسان؛ لأن وضعه العقلي عسير الفهم، وقد رأى موموس هذا أن البشر كان ينبغي بناؤهم مع ترك نافذة في صدورهم؛ لتكون حالاتهم العقلية أيسر لتعرُّفها. وفكرة أن أفكار الشخص قد تكون مخبأة في الأعماق السريَّة لعقولهم ليست فكرة غير مألوفة، واللايقين إزاء الحياة العقلية للآخر كثير ـ وكثير جدًّا ـ ما ينشأ عن نوع من اللقاء مع حيوان غير بشري أو مع ثقافة مختلفة جذريًّا عن ثقافة المرء، غير أن من شأنه أيضًا أن يحدث جراء الاحتكاك مع من هم على علاقة حميمة جدًّا معه، وعند الاستيقاظ

(1) موسيقى قديمة في تأملات مقفَّاة.

في الساعات الباكرة من الصباح، قد يتساءل المرء عما يجري في عقل الشخص الممدد بجانبه.

يبدو التفكير إذن نشاطًا خاصًّا، وتبدو الأفكار ممثلين في مسرح خاص؛ مسرح جمهوره شخص واحد فقط. ما من أحد آخر يملك ـ أو يمكن أن يملك ـ ذلك النوع من الوصول الفوري والمباشر إلى أفكارك كما تفعل أنت، ويمكنك ـ بالتأكيد ـ أن توصل أفكارك إلى شخص آخر إذا شئت، غير أنك تستطيع أيضًا أن تحتفظ بأفكارك لنفسك، كما يقال. خلافًا لحركات جسد المرء التي هي مكشوفة للنظر من حيث المبدأ (وإن لم يكن على الصعيد العملي دائمًا)، تبقى محتويات عقل المرء خاصة، محاطة بتخوم وعي المرء الخاص.

غالبًا ما يوصف هذا التصور للفكر بالديكارتية؛ لأننا مدينون بالكثير من نفوذه لمؤلفات رينيه ديكارت. سنركز في هذا الفصل على العناصر المعرفية للصورة الديكارتية ـ على روايتها لقصة وصولنا إلى الفكر. أمامنا أطروحتان للمعاينة؛ تقول الأطروحة الأولى إن فكر المتكلم شفاف: أفكار المرء الخاصة متاحة له على نحو فوري أو مباشر. أما الأطروحة الثانية، فتقول إن فكر الغائب كتيم: فأفكار الآخرين ليست متاحة لنا على نحو مباشر أو فوري، وإن كانت متوافرة على نحو غير مباشر وحسب، وبالفعل فإننا سنرى أن النظرة الديكارتية تهدد بنسف فرضية قدرتنا على امتلاك أي سبب من أسباب الوصول إلى أفكار الآخرين.

تعرَّض عنصرا الرواية الديكارتية كلاهما للنقد الكثيف على امتداد القرن السابق أو نحوه، وثمة منظّرون يرفضون أطروحة أن أفكارنا الخاصة

شفَّافة بالنسبة إلينا؛ آخرون ينكرون أن أفكار الغير كتيمة بالنسبة إلينا؛ وفريق ثالث ينفي هاتين الأطروحتين كلتيهما. سيتولى هذا الفصل مهمة اطلاعكم على بعض أكثر انتقادات الصورة الديكارتية تأثيرًا، وصولًا إلى النظر في ما قد يبقى منها بعد أخذ جملة تلك الانتقادات في الحسبان.

عقل يخصُّ صاحبه

بأي معنى يمكن لأفكار المرء أن تكون شفَّافة؟ لا يوجد ما يدعو إلى الاعتقاد بأن طبيعة أفكارنا شفافة بالنسبة إلينا. بعضهم يرى أن الأفكار حالات دماغية، وآخرون يعدُّونها حالات وظيفية تحققها حالات دماغية، وفريق ثالث يضع الأفكار في خانة حالات روح لا مادّية. والحكم على هذه المقترحات يتطلب بحثًا علميًّا وتحليلًا فلسفيًّا، ومن الواضح أن الاستبطان لا يزوِّد المرء إلا بالقليل من البصيرة النافذة إلى الأعماق القصوى لطبيعة أفكارنا.

واضح أيضًا أن جذور أفكارنا ليست بطبيعة الحال شفافة بالنسبة إلينا، فغالبًا ما نكون شبه غافلين عن الأسباب المحتملة الكامنة وراء أفكارنا، أو عن سبب انجذابنا إلى هذه الفكرة بدلًا من تلك، انظروا إلى السؤال الآتي: أي البلدين أكبر، كندا أم البرازيل؟ مع أنكم ميالون بقوة ربما إلى تقديم هذا الجواب دون ذاك، فإن من غير المحتمل أن تكونوا مدركين للعوامل الكامنة خلف هذا النزوع، حتى عندما تكون لدينا قناعات بشأن منبع أفكارنا، فلا يوجد ما يدعو إلى الاعتقاد بأن مثل هذه القناعات متمتعة بنوع خاص من المرجعية، وكثيرًا ما يكون الآخرون في وضع أفضل منا نحن أنفسنا على صعيد تفسير تكوين أفكارنا.

غير أن من الصعب ـ رغم هذا كله ـ مقاومة فكرة وجود شيء ما على أنأ علاقة بأطروحة الشفافية؛ خذوا شخصين: أحمد وحسن، المنخرطين في لُعْبة احزر رقمًا. يضمر أحمد رقمًا هو بين الواحد والعشرين، ويحاول حسن أن يخمِّن ذلك الرقم. افترضوا أن حسن خمَّن أن أحمد يفَكِّر بالرقم 14، إلا أنه ينكر أنه على صواب في تخمينه. لا يكون حسن ملزمًا بالتسليم بإنكار أحمد ـ قد يشك ـ مثلًا ـ بأنه يكذب، غير أن من شأن قيام حسن باتهام أحمد بالوقوع في خطأ حول الرقم الذي كان يضمره أن يبدو بالغ الوقاحة، وإذا وافق أحمد بأنه كان يفكر بالرقم 14، فلا بد ـ فرضًا ـ من أنه كان يفكر بـ 14.

تتعمم الفكرة على أي فكرة ترد في تيار الوعي، وعند التصدي لمسألة الكشف عن هذه البنود، لا يبدو أن هناك أي شيء يكون المرء بحاجة إلى أن يفعله؛ فأفكار المرء الواعية تبدو مردودة إليه مباشرة، يكون المرء منتبهًا ببساطة إلى أنه غارق ـ مثلًا ـ في التفكير بما سيتناوله على الغداء، أو بما إذا كانت رحلته الجوية ستتأجل، أو بالتأكُّد من أنه نسي مفاتيحه في السيارة المقفلة. من الصعب أَخْذ الإيحاء بأن شخصًا يمكن أن يخطئ في تحديد أفكاره ـ يمكن لتلك الأفكار أن تكون مختلفة عما هي بادية عليه ـ مأخذ الجدّ. بهذا المعنى ـ وربما بهذا المعنى وحسب ـ يكون الالتزام الديكارتي بشفافية فكر المتكلم متمتعًا بقدر من الصدقية. (هل هذا النوع من الشفافية محصور بأفكار المرء الخاصة، أم يمكن لشخص مجهز بتكنولوجيا قراءة أدمغة أن يمتلك هذا النوع من أنواع سبب الوصول إلى أفكار شخص آخر؟ فيما يأتي سنعاين هذه المسألة).

من المهم الإقرار بأن مدى الشفافية الذي وقفنا عليه للتو محصور بالأفكار الواعية ـ بالأفكار التي ترد في إطار تيار الوعي. ومن الواضح أننا لسنا على اتصال مباشر وفوري مع هوية مواقفنا الافتراضية النافذة ـ جملة قناعاتنا، رغباتنا، ومقاصدنا المزاجية. افترضوا أنكم سُئلتم عن زوج رونالد ريغان الأولى، قد تكونون عارفين جواب هذا السؤال بمعنى القدرة على إنتاج جواب في أكثر السياقات طبيعية، غير أنكم قد لا تكونون قادرين على تذكر الجواب إذا كنتم مرهقين، وإذا أُصبتم بارتجاج دماغيّ حديثًا، أو كنتم في حالة غياب عن الوعي.

يمكننا بالفعل أن نكون مخطئين حتى بشأن مواقفنا الافتراضية القائمة؛ فآليات خداع الذات قد تعمينا عن طبيعة قناعاتنا، ورغباتنا، ومقاصدنا الخاصة، يمكن لأي شخص أن يجهر برفض العنصرية ـ مقتنعٌ هو حقًّا أنه بريء من المواقف العنصرية ـ إلا أن فحصًا دقيقًا لسلوكه قد يكشف عن أنماط سلوكية لا تُفسَّر إلا بافتراض وجود مواقف عنصرية، في الحقيقة ثمة فرع ذو شأن من فروع علم النفس الاجتماعي، مهتم بتقصِّي مدى تحكم مثل هذه المواقف المضمرة في تعاملاتنا اليومية، إلا أننا لا نملك إمكانية الوصول الشفاف إلى هذه المواقف؛ لأنها لا شعورية، ولا واعية، ولا يوجد ما يدعو الديكارتي ـ أو أي شخص آخر بالمناسبة ـ إلى الاعتقاد بأننا سنكون جديرين بالثقة على صعيد عطفها على أنفسنا.

عقول الآخرين

طَبْعَةُ شفافية المتكلم التي قدمناها للتو أكثر تواضعًا بعض الشيء من عدد كبير من طَبْعات الأطروحة التي تم الدفاع عنها، غير أنها متوافرة

على ما يكفي من القوة لتوليد تضارب صارخ بين حالة المتكلم وحالة الغائب؛ فكثيرًا ما نكون- كما أسلفنا في مطلع الفصل غارقين في بحر عميق من الشك حول أي أفكار واعية، بالمطلق، قد تكون مارة في عقل شخص آخر. من منطلق التصور الديكارتي للفكر بوصفه فريق ممثلين على مسرح داخلي، ليس التحدي متمثلًا- في الحقيقة- بتفسير الأخطاء التي نقترفها لدى تعقب أفكار آخرين، بل بتفسير سبب أننا ناجحون في تعقب أفكار آخرين. كيف نكشف إذن عما يفكر به آخرون؟

مازال علماء النفس منخرطين في عملية اجتراح جواب هذا السؤال، ومع أن التفاصيل ليست كلها بمتناول الأيدي، فإن من الواضح أننا نستخدم جملة متنوعة من المفاتيح لقراءة حالات الآخرين العقلية، توجد أنواع من الحالات العقلية - لاسيما تلك العاطفية - قابلة للإدراك في السلوك؛ فالفرح نراه مكتوبًا على الوجوه وفي نمط الحركة؛ الخوف واللايقين نستطيع سماعهما في الأصوات. أنواعٌ أخرى من الحالات العقلية تكون أقل ارتباطًا حميميًّا بأنماط سلوك معيَّنة، لكنها قابلة للاكتشاف بقدر من الجدارة بالثقة والتعويل على مؤشرات سلوكية. في العديد من السياقات، يفكر الناس بالأشياء التي تشكل بؤرة انتباههم الإدراكي؛ وهكذا فإن المرء غالبًا ما يكشف عما يفكر به آخرُ عبر الاهتداء إلى ما يتابعه بالنظر أو السمع (مثلًا)، غير أن أهم مفاتيح حالة الآخر العقلية يوفرها ما يقوله أو ما لا يقوله، بحسب ما يكون عليه الوضع بالنسبة إلينا نحن المخلوقات اللغوية، وحتى مع أخذ احتمال الخداع والتضليل في الحسبان، فإن رهانًا معقولًا يتمثل بأن شخصًا مقتنع بأن المطبخ يحترق إذا ما أفاد بأن المطبخ يحترق.

من خلال تقديم التصور الديكارتي للأفكار بوصفها مجموعة ممثلين على خشبة مسرح داخلية، أوحيت بأن وجهة النظر هذه تهدد بنسف فرضية أن بوسعنا امتلاك أي نوع من أنواع أسباب الوصول إلى أفكار الآخرين. كيف ينشأ ذلك التهديد بدقة؟ آخر المطاف أن يقال إن نوعًا من عدم التناظر في نمط الوصول المتوافر لنا بالنسبة إلى أفكارنا الخاصة من ناحية وفيما يخص أفكار الآخر، شيء، أما الإيحاء بأننا مفتقرون إلى أي نوع من أنواع الأسباب المضمونة للوصول إلى أفكار الآخرين شيء آخر تمامًا، لماذا يمكن لتصور الفكر الديكارتي أن يتمخض عن قلق ارتيابي جذري إزاء الانغلاق الدائم لعقول الآخرين علينا؟

انظروا إلى التجربة الفكرية الآتية التي طوَّرها لودفيغ فيتغنشتاين في تحقيقات فلسفية حول فريق يملك كل واحد من أفراده علبة فيها خنفساء، إذ يستطيع كل شخص أن يعاين خنفساءه، غير أنه ممنوع من الوصول إلى خنفساء أي شخص آخر ـ لا يستطيع المرء أن يصل إلا إلى العلب التي تؤوي الخنافس. يشير فيتغنشتاين إلى أننا لن نحصل على أي دليل يثبت احتمال أن الخنافس في سائر العلب متشابهة على الرغم من احتمال أنها كذلك؛ فأنت لم ترَ الخنفساء القابعة في عُلْبَتي آخر المطاف، ولم يسبق لي قط أن رأيتُ أنا تلك القابعة في علبتك، فقد نعرف أن العلب التي تؤوي الخنافس متشابهة، إلا أننا لسنا ـ على ما يبدو ـ في وضع يمكِّننا من أن نعتقد بأن الخنافس جميعها متشابهة.

ما علاقة هذا بالاهتداء إلى مدخل يوصلنا إلى أفكار الآخرين؟ حسنًا، افترض أنك قلت إن المطبخ يحترق. على الرغم من احتمال قيامي بتبني ما

نطقت به تعبيرًا عن الفكرة ذاتها التي كنت سأعبر عنها لو قلت إن المطبخ يحترق، فإن من غير الواضح مدى كون الديكارتي قادرًا على تبرير هذه الفرضية؛ لأن الرواية الديكارتية لا تشتمل على أي ترابط داخلي أو متجذر بين هوية فكرة معينة من جهة وتجليها السلوكي من جهة أخرى، تمامًا كما يمكن لعلب من النوعية ذاتها أن تؤوي أنواعًا مختلفة من الخنافس، وإيواء خنافس من النوعية ذاتها في أنواع متباينة من العلب، يتعين على الديكارتي أيضًا أن يوافق على أنه من شأن الصيغ السلوكية ذاتها أن تكون نابعة من أفكار متنوعة، ومن شأن أفكار من النوعية ذاتها أن تُفْضِي إلى صور متباينة من السلوك. وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يمكن أن يبرر لنا ـ وهذا ما هو حاصل بوضوح ـ عطف حالة عقلية ما على أحدهم من منطلق سلوكه؟ هذا هو لبُّ مشكلة العقول الأخرى، سيئة السمعة.

لم يكن هدف فيتغنشتاين من تقديم مثال الخنافس في العلب إثبات وجود مشكلة عقول أخرى فعلًا، بل الكشف عن إفلاس النظرة الديكارتية بإظهار أنها تقوِّض قدرتنا على عطف الأفكار على بعضنا. نظرًا إلى قدرتنا الواضحة على تعرُّف الحالات العقلية لبعضنا بقدر معين من الجدارة بالثقة، فإن أي رواية عن طبيعة الفكر تنطوي على أن مثل هذه القابلية متعذِّرة التحصيل يجب أن تكون هي ذاتها على خطأ. من الطبيعي ألا يبادر شخص عميق الإيمان بالنظرة الديكارتية إلى التزحزح جراء الحجة التي ساقها فيتغنشتاين ـ قد يبقى الديكارتي مصرًّا على أن افتراضنا لامتلاك سبب الوصول إلى أفكار الآخرين إنْ هو إلا هراء دون أي لبس ـ غير أن حجة فيتغنشتاين ستوفر وقفة تأمل لكل من ليس أسيرًا بعمق للصورة الديكارتية.

لماذا، بالتحديد، تتمخض الرواية الديكارتية عن مشكلة العقول الأخرى؟ تنشأ المشكلة لأن الديكارتي يرى العلاقة بين الفكر وتجلياته السلوكية علاقة عَرَضية، طارئة. تمامًا كما لا يوجد أي ترابط ضروري بين الخنفساء وعلبتها، لا يوجد أي ترابط ضروري بين الفكر والسلوك الذي يفرزه، وهكذا فإن من شأن إحدى طرق حل مشكلة العقول الأخرى ـ ولعلها الطريقة الوحيدة بالفعل ـ أن تتمثل بتبني تصور للفكر تكون فيه العلاقات بين الفكر وتجلياته السلوكية داخلية أو غير عرضية. وكيف يمكن لمثل هذه النظرة أن تبدو؟

توفر العقيدة السلوكية تصورًا للفكر تكون فيه الأفكار مبرمجة وفقًا لأنواع معينة من ألوان السلوك. بوجه عام، يربط الشخص السلوكي التفكير بأن المطبخ يحترق بالميل إلى إنتاج أنواع معينة من ألوان السلوك ـ مثل إطلاق عبارة المطبخ يحترق ـ في الظروف المناسبة، ومع أن مطابقة الأفكار مع النزعات السلوكية من شأنها أن تحل مشكلة العقول الأخرى، فإن الثمن المدفوع مقابل هذا الحل باهظ جدًّا؛ لأن من غير المعقول إلى حدٍّ كبير أن تكون الأفكار جميعها قابلة للإحالة على نزعات سلوكية محددة كما طاب لأنصار النزعة السلوكية أن يتصوروا. في كتابه: السلوك اللفظي (Verbal Behavior)، يتذكّر عالم النفس بي أف سكنر (B.F. Skinner) حفل غداء تحداه فيه الفيلسوف ألفرد نورث وايتهد (Alfred North Whitehead) أن يوفِّر تحليلًا سلوكيًّا لفكرة: ما من عقربة سوداء واقعة على هذه الطاولة. من نافل القول، إن التحدِّي مرَّ دون استجابة.

مع أن للنزعة السلوكية عددًا قليلًا من المناصرين، فإن منظّرين كُثرًا يتبنَّون إيمان السلوكيين بأن هوية أفكار المرء مرتبطة أساسًا ببيئته الإدراكية والسلوكية، وهذا الرأي يقع في صلب النزعة الوظيفية؛ فالوظيفيون يرون الأفكار حالات داخلية تتوسط بين حالات مُدخَلة وحالات مُخرَجة مختلفة الأنواع. وأي فكرة محددة ـ فكرة المطبخ يحترق ـ مثلًا ـ هي حالة داخلية مؤهلة لأن تكون ذات أنواع معينة من الأسباب (مثل رؤية الدخان متصاعدًا من المطبخ؛ الإحساس بالحرارة المنبعثة من ألسنة اللهب)، ومؤهلة أيضًا أن تكون ذات أنواع معينة من الآثار (مثل البحث عن سلَّم النجاة؛ أو الاتصال بخدمات الطوارئ). يرى الوظيفي أن هوية أي فكرة تتحدد بالدور الوظيفي الذي تضطلع به في إطار الاقتصاد المعرفي للموضوع الذي تقع فيه.

تشكل النظرة الوظيفية إلى الفكر تحسينًا للنزعة السلوكية على صعيدين؛ أولًا: هي ترى أن هوية أي فكرة تتحدد لا بآثارها السلوكية وحسب، بل وبأسبابها الإدراكية الحسية أيضًا. ثانيًا: يبقى التصور الوظيفي للفكر شموليًّا أساسًا. في حين أن السلوكي يتعامل مع الأفكار بوصفها قابلة للتمييز إفراديًّا من منطلق نزعات سلوكية معينة، فإن الوظيفي يرى أن هوية أي فكرة تتحدد بالدور الذي تضطلع به في إطار الاقتصاد السيكولوجي الإجمالي الذي تحدث فيه، ومن المهم أن هذا الاقتصاد سيشتمل على أفكار أخرى، وهذا يفسر واقع أن الفكرة نفسها يمكنها أن تتمخض عن تجليات سلوكية شديدة التباين، من شأن التفكير بأن المطبخ يحترق ـ

مثلًا ـ أن يدفع بعض الناس إلى محاولة الهرب من المطبخ مع دفع آخرين (مثل عناصر الإطفاء) إلى محاولة اقتحام المطبخ.

لذا يوجد تنافر واضح بين الرواية السلوكية لقصة الأفكار والرواية الوظيفية للقصة نفسها، يوجد أيضًا تنافر واضح بين الرواية الوظيفية لقصة الفكر ونظيرتها الديكارتية؛ ففي حين أن الديكارتي يرى الأفكار حالات خاصة خالصة ـ مفردات هويتها مستقلة عن أي حالات شؤون متاحة للجمهور ـ يرى الوظيفي أن هوية أي فكرة تعتمد على وقائع متاحة للجمهور بصيغة بيئة الموضوع الإدراكية واستجاباته السلوكية، ولهذا السبب يكون الوظيفي قادرًا على الحيلولة دون ذلك النوع من نزعة الشك حول عقول أخرى، تلك النزعة التي تهدد بترسخ النظرة الديكارتية.

لا تكتفي النزعةُ الوظيفية بتزويدنا بواقية مضادة لمشكلة العقول الأخرى، بل وتبادر أيضًا إلى تفسير أسباب أن وصولنا إلى أفكار الآخرين مشروط وغير مؤكد في الغالب، ومن شأن حتى معلومات بالغة الاتساع عن السياق الإدراكي والنزعات السلوكية لأي مخلوق، أن تخفق في تحديد وظيفة أفكار فريدة لها. (هل قالت ذلك لأنها منزعجة، أم لأنها تعمَّدتْ أن تهينه؟) ناجحون نحن تمامًا في الاهتداء إلى أفكار الذين نعرفهم، وعلى نحو أعم، أفكار أولئك الذين نتقاسم معهم لغة وثقافة مشتركتين، أما الاهتداء إلى أفكار أولئك الذين ينتمون إلى ثقافات مختلفة جذريًّا عن ثقافتنا، فيشكل تحدِّيًا في الغالب، كما يعلم أساتذة الأنثروبولوجيا على نحو ممتاز. صحيح أن إنسانيتنا المشتركة ترسخ صدقية سلسلة من إضافات الحالة العقلية، إلا أننا كلما ابتعدنا عمن هم قريبون وعزيزون منا وعلينا، صار وصولنا إلى

أفكار الآخرين أكثر انطواءً على اللايقين، بل وما هو أكثر إزعاجًا يتمثل بجملة التحديات التي يطرحها الاهتداء إلى أفكار أولئك المفتقرين إلى الكلام. سنتناول مثل هذه التحديات بالمعاينة في الفصل الآتي.

كتابة الدماغ وقراءة العقل

حتى وقت قريب بقي سبب وصولنا الوحيد إلى عقول الآخرين يمرُّ عبر استجواب سلوكهم. أما في العقود الأخيرة، فإن صورة جديدة من صور قراءة العقل قد انبثقت، ويُعرف هذا المنهج باسم قراءة الدماغ أو حلّ لغز الدماغ، وينطوي على عطف أفكار على شخص من منطلق معلومات حول أنماط نشاطه الدماغي. وفي إحدى الدراسات قدم عالم الأعصاب جون ديلان هاينس وآخرون (John_ Dylan Haynes) رقمين إلى المشاركين (3 و 7 مثلًا)، ووجَّههم إما إلى جمع الرقمين معًا أو طرح أحدهما من الآخر، وبالإفادة من بيانات مستمدة من التصوير الوظيفي للأعصاب، استطاع هاينس ورفاقه أن يحددوا بنسبة (70) بالمئة من الدقة ما إذا كان المشاركون سيجمعون أم سيطرحون في تعاملهم مع الرقمين المعروضين.

أما صدقية فن حل لغز الدماغ الذي استخدم في دراسة هاينس، فيمكن قياسه عن طريق سؤال المشاركين عما كانته حالاتهم العقلية، إلا أن فنون حل لغز الدماغ وُظفت أيضًا في سياقات كانت فيها عملية التأكد السلوكي من هذا النوع أكثر إشكالية بعض الشيء، وقد بادر عالم الأعصاب آدريان أوين وآخرون (Adrian Owen) إلى استخدام هذه الفنون والتقنيات في اكتشاف مدى إمكانية امتلاك مرضى في الحالة النباتية لبعض القدرة

على التفكير، وطُلب في إحدى الدراسات إلى مريضة في حالة نباتية أن تتخيل نفسها إما وهي تمارس لعبة التنس، وإما وهي تقوم بزيارة غرفة بيتها، ومن المفاجئ أن المريضة أبدت نشاطًا عصبيًّا تجاوبًا مع هذه التوجيهات، نشاط كان شبيهًا بما أبداه أفراد غير معاقين إدراكيًّا، فاستنتج أوين وزملاؤه أن المريضة كانت قد نفَّذت التعليمات الموجهة إليها بوعي. ومع أن هذه الترجمة للبيانات إشكالية ـ عدد من النقاد سلَّموا بأن هذه النتائج تزودنا بما يشير إلى أن المريضة كانت تعالج معلومات من نوع ما، غير أنهم كانوا ينكرون أن لديهم ما يدعو إلى جعلهم يعتقدون أن معالجة المعلومات كانت واعية ـ فإنها تطرح بالتأكيد إمكانية صيرورة عملية حل لغز الدماغ، قادرة على تحري مؤشرات تفكير واعٍ مازالت بعيدة عن متناول مناهج قراءة الدماغ التقليدية.

ما المدى المحتمل لهذه الفنون والتقنيات؟ هل يوجد أي سبب يدعو إلى التفكير باحتمال اجتراح علماء الأعصاب ذلك النوع من المدخل إلى عقله الذي يرقى إلى مستوى ما لديه؟ هل يمكن للمرء أن يوظف هذه التقنيات لتحرير الحظ من لعبة: احزر رقمًا؟

على الرغم من افتقار التنبؤ بما قد ينجزه (أو لا ينجزه) العلم إلى الحكمة، فإن من المفيد تأكيد نواقص جملة مناهج حل لغز الدماغ الراهنة. تصطنع هذه الدراسات ـ أولًا ـ تقييد نطاق الأفكار التي يمكن للمشاركين أن يضمروها؛ ففي دراسة هاينس تمت مطالبة المشاركين إما بجمع الرقمين المعروضين وإما بطرح أحدهما من الآخر؛ وفي دراسة أوين طُلب إلى المشاركة إما بتخيل نفسها وهي تلعب التنس أو بتصور نفسها وهي

تتجول في بيتها، لكن سلسلة الأفكار التي يستطيع المشاركون أن يضمروها في سياقات عالم الواقع ليست محدودة على هذا النحو، ما يؤدي إلى جعل مهمة تعرُّف أفكار أي مشارك في الحياة اليومية أصعب بكثير مما هي في ظروف المخبر. تقوم هذه الدراسات- ثانيًا- باستخدام علاقات ارتباط معتمدة سابقًا بين أفكار وأنماط نشاط عصبي، ورغم ما يُزعم أحيانًا، فإن هذه الدراسات لا تتضمن تفكيك ألغاز لغة الفكر (حقًا، هي حتى لا تفترض وجود أي لغة فكرية). ونتيجة لذلك، فإن هذه التقنيات أو الفنون لا تمكِّن علماء الأعصاب من تعرُّف الأفكار التي لم تدخل بعد في قوائم قاعدة بيانات علاقات الارتباط لدى عالم الأعصاب، ومن هذه الناحية تبقى تقنيات قراءة الدماغ أقل إثارة من تقنيات قراءة العقل التقليدية ذات القاعدة السلوكية، التي نلوذ باستخدامها يوميًا لأننا نعمد روتينيًا إلى توظيف مثل هذه التقنيات بغية عطف أفكار لم يسبق لها أن راودتنا.

هل يمكن للتطورات الحاصلة في مناهج حل لغز الدماغ أن تهتدي إلى طرق تمكِّنها من التغلب على هذه العيوب؟ وحده الزمن سيجيب. أما ما نستطيع قوله الآن، فهو أنه لا يوجد إلا القليل من الفرص، التي ستمكِّن علماء الأعصاب في أي مستقبل قريب من الاهتداء إلى ذلك النوع من المدخل المفضي إلى أفكارك التي هي ملكك.

من الخارجي إلى الداخلي (وبالعكس)

جادلت أن هناك شيئًا من الصواب في التصور الديكارتي للفكر؛ فالباب المتاح للمرء والمفضي إلى أفكاره الخاصة يختلف لا من حيث

الدرجة وحسب، بل ومن حيث النوع عن الباب الذي يفضي بالمرء إلى أفكار الآخرين. ولكن، هل يعني هذا أن جوهر الفكر ينطوي على نوع من الحدث الداخلي ـ نوع من الأداء على خشبة مسرح ديكارتي داخلي؟ ربما لا، إذ توجد تصورات فكرية معادية روحًا للديكارتية، إلا أنها تتيح لنا فرصة إنصاف ما يبدو موجودًا في الصورة الديكارتية من صواب.

افترضوا أن الفكر (المعقد، الإنساني بامتياز) يبدأ بمنظومة رموز علنية من نوعية ما. ربما استخدم أوائل المفكرين (مثلًا) عدادات من نوعية ما لتمثيل الأشياء. قد تكون حبة فاصولياء واحدة مثلًا ممثلة لنبع ماء، وحبتان لنبعين، وهكذا. عن طريق توظيف حبات الفاصولياء ربما نجح مجتمع أوائل البشر في جعل تتبع عملية توزيع الموارد المائية أيسر، ومع الزمن استُكمل استخدام العدادات، واستبداله لاحقًا، باستخدام الكلمات. وما إن صار الخلق قادرين على التحادث، حتى باتوا قادرين على التحدث مع أنفسهم، ومن يستطيع أن يكلم نفسه يمكنه ـ مع الزمن ـ حيازة قابلية الاحتفاظ بأفكار لنفسه؛ وعليه، يرى الديكارتي الفكر عملية داخلية أولًا وقبل كل شيء ـ أمرًا يحصل داخل الغرفة المغلقة لعقل المرء الخاص ـ ولا يجعله متاحًا للملأ إلا عن طريق حركة تواصل إضافية. الصورة التي رسمتها هنا بالخطوط العريضة العامة تقلب تلك النظرة رأسًا على عقب، وتوحي بأن للفكر ـ أقله للفكر البشري بامتياز ـ جذوره في فضاء الإدراك والحركة المتاحة للملأ.

ومن هذا المنطلق، فإن أفكار المرء تتجلى طبيعيًّا في سلوكه، فقد لا يتمكن بعضهم مطلقًا من امتلاك القدرة على إخفاء أفكارهم؛ وآخرون

قد لا يكتسبون تلك القدرة إلا على نحو تدريجي (بالتقسيط). عاينوا كيف يتعلم الأطفال العدَّ، فقابلية العدِّ هذه ليست قُدرة يكتسبونها عن طريق التحكم أولًا في لغة فكر داخلية، ويتعين عليهم بعد ذلك أن يترجموها إلى لغة طبيعية، وبدلًا من ذلك، يتعلم الأطفال العدَّ (أول الأمر) عن طريق الجهر بكلمات عددية بصوت مرتفع، أو عن طريق الإشارة إلى أصابع أيديهم وأقدامهم، وما إن يتقنوا قابلية العدِّ على هذا النحو، حتى يصبح الأطفال قادرين على اكتساب قدرة العدِّ وحدهم، في خصوصية عقولهم الخاصة؛ إنها عملية تبدأ على المكشوف، ثم تصبح داخلية حميمة، ومخفية- إذن- عن أنظار الآخرين. (ربما كان الدافع أو المحرِّك التطوري لهذه العملية هو الخداع - حاجة المرء إلى الاحتفاظ بأفكاره لنفسه). وما إن نكون قد تعلَّمنا فنَّ الاحتفاظ بأفكارنا لأنفسنا، حتى نصبح قادرين على ممارسة لعبة: احزر رقمًا، على التخطيط لحفلات أعياد ميلاد مفاجئة، وعلى تدبير مؤامرات إسقاط منافسينا.

* * *